أسوأ ما في الألم هو أنّه يؤلم.

أفظع ما في الحرب هو أنّها لا تؤلم. قد تُمزّقك الحرب، وقد تكسرك وقد تبترك، لكنّها لا تؤلم. تصبح الحرب لحمًا، دهونًا، نسيجًا شحميًّا، مسمارًا، ندبةً. تصبح شيئًا ما في جسدك، تتحوّل إلى جزء منك، لكنّها لا تؤلم.

يقال أنّ الألم يبدأ كمُنبّه في المنطقة المتضرّرة (القدم، فرضًا) ويتقدّم بسرعة نحو الدّماغ الذي يعمل على ترجمة المنبّه إلى ما تعرفه أنت كألم. في هذه الأثناء، فقد أبعدت قدمك عن المسمار، وقطّبت حاجبيك، وشتمت، وفحصت وجود نزيف وضغطت على الجرح.

أجل، في البداية وكمجرّد فكرة، فإنّ الحرب تؤلم. يبدأ الألم عندما تختارها وتصبح قريبة، ملكك، أمرًا شخصيًّا. لم يستدعِني أحدٌ إلى الحرب - أنا، شابٌّ أرجنتينيٌّ - وبالتّأكيد لم يدعني أحدٌ ولم يطلب منّي أحد ذلك - أنا، المصوّر الحرّ: لقد اتّخذت القرار في يوم واحد. أو يومين. أو أسبوع. أو ربّما لم أتّخذه إطلاقًا: قد يعود الأمر إلى المسمار الذي بقي هناك، نازفًا وشاتمًا، والذي كنت أعرف أنّه لن يدعني وشأني ما لم أفعل شيئًا.

مع ذلك، أردت أن أومن بوجود طريقة ما أستطيع من خلالها الهروب من الحرب، أن ألهي نفسي بأمور أخرى. كنت في غزّة حتّى الأسبوع الذي سبق الحرب، وكانت غزّة تعيش ذلك الصّمت المُروِّع الذي يسبق العاصفة. كنت قد اخترت قبل ذلك بزمن طويل أن أذهب إلى فنلندا لالتقاط الصّور، وكان ذهابي يبدو لي ضربًا من القدر يتيح لي فهم ما أصوّره، ويسمح لي بتعريف نفسي: تبدأ الحرب، وأرى نفسي هنا، في قرية فنلنديّة، محاطًا بمئة ألفِ سكير يرقصون ويغنّون نوعًا من الموسيقى يقولون هم أنّها موسيقى "التّانغو" والتي كان بودّي توثيقها منذ عدّة سنوات.

عُدت إلى إسرائيل، مُذعنًا للرّجوع إلى المكان الذي أسكن فيه. كانت الحرب دائرة، أجل، لكنّ الحياة هنا استمرّت كما لو أنّ شيئًا لم يكُن - فالحانات مليئة، والنّاس يتسوّقون والبرنامج الأسبوعي في دار السّينما هو ذاته - وكما لو أنّ كلّ شيء يسير كالمعتاد: صفّارات إنذار، وأعلام في كلّ مكان، ويافطات تُكثر من كلمات "النّصر" و"السّلام" و"نحن" وجوّ مشحون كذلك الذي يمكنك رؤيته في مدرّج المشاغبين في مباراة كرة قدم.

وفي تلك الأثناء، بقيت غزّة هناك، تتلاشى شيئًا فشيئًا، وتَئِزّ بفعل طيّارات الـ"إف 16" التي كانت تمرّ على مقربة من منزلي البعيد، وتُدوّي بأصوات القذائف الصّمّاء التي كانت تُسمع وكأنّها كابوس بعيد في المنام.

بالنّسبة لي، تحوّلت غزّة قبل أكثر من شهرين من مجرّد اسم مألوف يبعث الخوف إلى أسماء خاصّة ووجوه معروفة. كان الأمر أشبه باللّكمة: فكان الحرّ شديدًا، والرّطوبة لا تحتمل، وكان ينقص كلّ ما هو أساسيّ لجعل المكان صالحًا للسّكن. رغم ذلك، كانت التّجربة مُنعشة، إذ تعرّفت إلى أشخاص كانت لديهم، ورغم كلّ شيء - كلّ ما هو كلّ شيء هناك - رغبة في الحياة والعمل، وأشخاص يقفون وجهًا لوجه أمام الحياة وبعيون مفتوحة ويُعانقونها بكلّ قواهم. كان الأمر، بطريقة دقيقة ما، أشبه بخاتمة دائريّة، وفهمت أنّ غزّة بدأت تُصبح وجهًا ودودًا ومكانًا بحدّ ذاتها.

أصررت على ترك الحرب تمضي، على فعل أمور أخرى، إلّا أنّ الحرب لم تدعني وشأني. في تلك الأيّام الأخيرة من شهر تمّوز، ذهبت إلى مسرح تل أبيبيّ لمشاهدة "رِكوييم" للمسرحيّ حانوخ لِفين، وهي عبارة عن ترجمةٍ مسرحيّةٍ لثلاث قصص للكاتب تشيخوف. للحظة تحوّلت الحرب إلى شابّ نحيل يُعلِمنا قبل بداية العرض بأنّه علينا الدّخول إلى الملاجئ في حال انطلاق صفارات الإنذار. بدأت المسرحيّة وبدا أنّ الحرب بعيدة، هناك، في الخلف. في أحد مشاهد المسرحيّة، تظهر أمّ يائسة تحمل بين ذراعيها طفلًا كانوا قد سكبوا على جسده مياهًا مغليّة، وتسأل الأمّ: من ذا الذي قد يفعل فعلة كهذه بطفل رضيع. تبادرت إلى ذهني جميع تلك العدّادات اليوميّة التي كانت تحصي أعداد الأطفال القتلى والعائلات المدمّرة. في تلك اللّحظة، بدت لي الحرب وبدت لي غزّة بعيدتين أكثر من أيّ وقت مضى، وكلّ ذلك الغياب والبعد صفعاني وشتماني وتركاني وحيدًا.

لم يكن الأمر قرارًا، إذن، إنّما حاجة، سعيٌ وراء الغوث. كان عبور الكيلومترات السّتة والخمسين التي تفصل بين منزلي في نيفيه شالوم وحاجز إيرِز بمثابة محاولة منّي للتّصالح مع الحلم مرّة أخرى، للاتّصال مع ذلك الكمّ من الغيابات. وهناك، على عتبة غزّة، توقّف الألم؛ الأمر ذاته يحصل في الجهاز العصبي: يستطيع الدّماغ أن يفسّر الألم، لكنّه لا يشعر ولا يمكنه أن يشعر به بنفسه.

***

نسكن أربعة أشخاص في الشّقة: مصوّرة فرنسيّة، صحفيّة بولنديّة، مصوّرة إيطاليّ وأنا، الأرجنتينيّ.

"تكبرنا" الفرنسيّة والبولنديّة أنا والإيطاليّ بأسبوعين، وهي فترة طويلة لدى الحديث عن الحرب. تكادان تكونان مُتمرِّستين، وربّما يكون هذا سبب نبرتيهما الاستعلائيّتين في كلّ شيء. من السّهل ومن الإنسانيّ أن تكتسب هذه النّبرة، فيومان فقط من البقاء على قيد الحياة في وسط القنابل ويومان فقط من رؤية الأموات من جميع الأعمار كفيلان بجعلك تشعر - تعتقد - أنّك تفهم شيئًا ما، كأنّ هناك ما يمكن فهمه في كلّ هذا العبث.

قد يكون ذلك غريبًا، لكن في الحرب ومفاجآتها يصبح الرّوتين هو مصدر الاستقرار. نستيقظ باكرًا كلَّ يوم وننظر إلى الأخبار ونُنبِّش عن سبيل لترجمة القصف الذي سمعناه ليلًا إلى عدد ضحايا وأسماء مواقع، ومن ثمّ نناقش الطّريق المُفضّل اتّخاذه لعبور الجحيم ومراقبته عن كثب دون أن تحترق رموشنا.

في هذه الأثناء، يبدأ مدخل المبنى الذي نقطن فيه بالاكتظاظ بمركبات تحمل حرفي الاختصار TV. ترنّ أبواق المركبات ليبصق المبنى الصّحفيّين بخوذاتهم وستراتهم المضادة للرصاص. عددنا في المبنى يصل إلى المئات من جميع بقاع الأرض. في ذلك الشّارع المجاور لشاطئ البحر، يصل عددنا إلى ألف، موزّعين على الفنادق والمباني الشّققيّة. قبل اندلاع الحرب، كان يقطن في هذه المباني العاملون في قطاع التّعاون والذين سيعودون فور إخلائنا، نحن الصّحفيّين، أماكننا. تنتظر الفنادق دومًا هذه اللّحظات التي تمتلئ بها المدينة بنا، نحن - أقرب ما يمكن أن يصبو إليه هذا المكان من سيّاح.

في هذه المنطقة أرى غزّة ودودة: فالبحر قريب، وهنالك مبانٍ في قيد الإنشاء تتعهدّ بقدر معيّن من الرّفاهية يومًا ما. ثمّة كماليّات لا يمكن تخيّلها مثل وجود الكهرباء على مدار اليوم. في الأوقات الهادئة، يكون هذا الشّارع عبارة عن موكب طويل من الأعراس والعائلات التي تخرج للتّنزّه وصيّادي الأسماك العائدين بعرباتهم. أمّا اليوم فالشّارع صحراء لا تعبرها إلّا مركبات الصّحافة وبعض الأشخاص الذين يخيّل أنّهم يتنكّرون بزيّ "ربوكوب"، يدخلون إلى الفنادق ويخرجون منها.

هنا، في هذا المكان، قد نعتقد أنّ غزّة مكان عاديّ: فالماء متوفّر، والنّاس يحصلون على طعام كافٍ ويفلحون بالنّوم ليلًا، بطريقة أو بأخرى. توجد مطاعم مفتوحة وطمأنينة ساذجة بأنّ الأمور سوف تبقى على هذه الشّاكلة، دون أن يصيبها مكروه غدًا وبعد غد. تبقى مخازن هذه المنطقة مفتوحة بثلّاجاتها القادرة على التّبريد، وفي قسم منها يمكن العثور حتّى على الخبز. أمام خزّان المياه العذبة هنالك طابور يتألّف من شخصين فقط، بدل المئة الذين يمكن العثور عليهم في أيّ منطقة أخرى من المدينة.

على وجه العموم، فإنّ أروقة المبنى الذي نقطن فيه هي أفضل مصدر للمعلومات، فهناك نتبادل المعلومات حول وجهة كلّ منّا، وفي حالة وجود خطر كبير نحاول تأليف قوافل. تستطيع أن تحطّ في هذا المكان دون أدنى فكرة عن وجهتك أو طريقة وصولك إليها، ويكفي أن تقف هناك وتنتظر ليصطحبك أحدهم أو ليسدي إليك نصيحة.

يستغرق الاعتياد على مثل هذا المكان وقتًا، رغم أنّ الوقت في هذا المكان يتقدّم بسرعة مختلفة تمامًا وبحمولة مغايرة. تمرّ الأيّام وتشعر بأنّها أسابيع، وفي كلّ مرّة تخطو فيها إلى الخارج تعود مع معارف حزينة وضروريّة: رائحة، ضجيج، لون. تبدأ بالتّعرّف إلى روائح الأجساد المتعفّنة العالقة تحت الحطام وإلى روائح المشارح. ومن لون سحابة الفطرة التي تعقب كلّ انفجار تعرف: هل أصابت القذيفة منزلًا أم حقلًا مفتوحًا؟

الأصوات أمر حاضر ودائم في كلّ ساعة من كلّ يوم. أينما كنت، يمكنك سماع الطّائرات دون طيّار في رأسك، في منامك، وبعد فترة وجيزة يمكنك التّمييز بين أنواع القذائف المختلفة: فتتعلّم أنّ أعلى القنابل صدًى هي تلك المنطلقة من طائرات الـ F16، وأنّ صواريخ المنطلقة من الطّائرات دون طيّار تخلّف وراءها جروحًا في السّماء، وأنّ لقذائف الدّبابات صوتًا أفقيًّا، وأنّه يجدر بك أن تهرب تحديدًا من هذه الأخيرة لكونها ذات الدّقة الأدنى. تلاحظ أنّ الدّويّ الأعلى يكون للقذائف المنطلقة من البحر لأنّك تسمعها مرّتين، كأنّها صدى، وتلاحظ أنّك تشعر عند حدوثها بأنّ نصف المدينة يَمّحي، وكأنّ ما بقي ويمكن هدمه كثيرٌ. تتعلّم أيضًا أنّ صوت الألعاب النّاريّة الطّائرة المُضخَّم المصحوب بأصوات محلّيّة تصرخ: "إنّه من عندنا"، هو صوت الصّواريخ التي تنطلق من غزّة، وتتعلّم أنّه كلّما كان الصّوت أقرب منك، فعليك أن تركض بسرعة أكبر لأنّ الحمم سوف تسقط بعد قليل.

يتألّف روتين الحرب من سلسلة الأحزان اليوميّة ذاتها: بداية - المواقع المقصوفة، من ثمّ - المستشفى والمشارح الموجودة فيه، ومن بعدها الجنازة، ومن ثمّ تعود إلى البيت للتنقيح. عند وجود هدنة، نقصد الأماكن التي كان يستحيل الوصول إليها خلال إطلاق النّار

لنرى كيف يخلّصون الجثث والممتلكات، حتّى تُعلمك أصوات الرّعد بأنّ الهدنة كُسِرَت، فتحاول أن تعود إلى منزلك بأسرع ما يكون.

يمكنك العمل بعدّة أساليب خلال الحرب. يعتمد الكثيرون على "فيكسر"، وهو شخص يقوم حرفيًّا بترتيب جميع الأمور: الجهات التي يمكنك الاتّصال بها، المقابلات، التّرجمات، القدرة على التّجوّل بقدر معيّن من الطّمأنينة في أشدّ الحالات. أولئك الذين يعرفون المكان ويتكلّمون العربيّة يتجوّلون بصحبة سائق سيّارة يأخذهم إلى كلّ مكان وينتظرهم هناك وحتّى يسدي لهم نصائح بشأن المسارات المحتملة والأماكن الخطيرة، لكن دون أن يتدخّل في عملهم.

نتحرّك نحن برفقة سائق سيّارة، ولكن في الأيّام الأولى لم يكن متّسع من المكان لي في مركبة زملائي، فانضممت إلى مجموعة بقيادة "فيكسر"، رجل ذي شاربين ولكنة مكسيكيّة- أمريكيّة في إنجليزيّته، أثر من الفترة التي عاشها في هارلِم. إنّ منظومة العلاقات في مجموعة يقودها فيكسر، أو هذا الفيكسر بالتّحديد، على الأقل، هي أقرب ما يكون إلى جولة سياحيّة: فالفيكسر يجول بك من مكان إلى آخر دون أن يستشيرك كثيرًا ويجذب انتباهك إلى أمور معيّنة لتراها ويفرض عليك رؤيتها، وكلّ ذلك مقابل مبلغ متواضع يعادل ثلاثمئة دولار للمجموعة.

وفق حساباتي، فإذا كان وقتك ضيّقًا، أو إذا كانت لديك خبرة كثيرة في معالجة الفاجعة، فطريقة العمل هذه تناسبك. وصلنا إلى مدرسة قُصفت وأشار الفيكسر إلى مواضع الدّم وإلى أقرباء الضّحايا؛ في المستشفى، قادنا إلى غرفة الطّوارئ، حيث كان بعض الأشخاص قد وصلوا لتوّهم مع جروحهم التي كانت بَعْدُ مفتوحة. وإذا أردنا الهروب بعد كلّ ذلك، كان يذهب للبحث عنّا ليذكّرنا بأنّهم يهيّئون الجثث في المشرح وأنّهم حفظوا لنا مكانًا كي نستطيع التقاط الصّور. أصررنا على المغادرة، لكنّه شدّنا من أذرعنا وقادنا إلى المكان حيث كان والد البنت الميّتة في تلك اللّحظات تحديدًا يبكي في خلوة أسرته وعشرات آلات التّصوير والصّحفيّين.

في الحرب ينكسر شيء ما. تنكسر أشياء عديدة، ومن أهمّ هذه الأشياء هي الحدود. يتلقّى النّاس ضربات عديدة تجعلها تفقد القدرة على فهم ما يحصل حولها، ومن السّهل - من السّهل جدًّا - تجاوز الحدّ، الدّوس على عشب خَلوَة الآخر والرّجوع إلى الخلف وكأنّ شيئًا لم يحصل.

***

يتوقّف الألم مع مجرّد الدّخول إلى الحرب. لكنّ الخوف لا يتوقّف، طبعًا.
لا سبيل إلى ذلك: مستحيل أن تتنبأ أين سيأتيك الخوف وكيف، مستحيل أن تعرف لونه أو شكله مسبقًا.

يشبه الخوف انتظارَ الولادة: آمال كثيرة وأمور عديدة نتخيّلها، حتّى ساعة وصول المولود وبقائه. سوف ينمو، ولكنّه في أفضل الحالات لن يبتعد عنك.

لا أطفال لديّ، لكن الخوف موجود. خوف هائل، عظيم، تطوّر خلال السّنوات ويضرب الآن بعنف: خوف عضويّ، لا من الموت، بل من التّحول إلى أشلاء. ربّما يكون خوفًا من أن يموت شيء ما في داخلي، بسبب كلّ هذا الموت الذي أراه. خوف مهنيّ بألّا أقوم بعمل يليق بكلّ هذه الأرواح التي أُسطّحها دون إذن؛ كلّ هذه الفاجعة التي أستخدمها مادّة خاميّة. خوف إنسانيّ بأن يبقى كلّ شيء إلى جانب الطّريق، دون إتمام كلّ تلك الأمور التي وعدت نفسي وأحبّائي بها، كلّ تلك الأمور التي تركتها في وسطها، كلّ تلك القوائم من الأشجار والكتب والأبناء التي يجب إتمامها.
أحيانًا يصبح الخوف، الخوف الحقيقي، كبيرًا إلى الحدّ الذي يبدو فيه أنّ لا خوف لديّ إطلاقًا.

ترتعد أيادي الأشخاص الأكثر صدقًا، وتصبح أصوات بعض الآخرين رفيعة، في حين تلتوي أفواه الكثيرين ويحاولون تعديل تسريحاتهم: كلّ منّا عبارة عن خوف.

للخوف أنواع. خوف القنابل مختلف. إنّه خوف شاذّ وصلب، عشوائيّ. ينفجر شيء ما على مقربة منك، ولن تنجح أبدًا في فهم فارق الدّقائق ذاك الذي يفصلك عن اللّحظة التي مررت فيها من هناك: بودّك أن تؤمن بأنّك تفقه شيئًا ما، بأنّ هنالك نظامًا ما. ليس هناك أيّ نظام.

فهمت ذلك في أوّل يوم في الميدان. خرجت مع زميلتي الإيطاليّة، أندريا، لتصوير كنيسة كانت تأوي عائلات لاجئة من حيّ الشّجاعيّة، وفي أثناء ذهابنا إلى هناك، غطّت الأفقَ سحابةٌ سوداءُ وامتلأت الشوارع بالنّاس الذين هرعوا صوبنا.

كانت الغلبة للفضول، وطلبنا من السّائق أن يقترب بنا من المكان. وصلنا إلى مفترق طرق في إحدى الجادات، وعلى بعد مئة متر رأينا حرائق وأجساد مرميّة في الشّارع. لم نفكّر في الأمر مرّتين: صرخنا بالسّائق كي يُخرجنا من هناك. لم يفهم السّائق الأمر، وبدلًا من أن يعود أدراج أحضرنا إلى مركز الانفجار، وأشار باسمًا إلى الأجساد الملقاة على بعد أمتار معدودة. صرخنا به مجدّدًا. أردنا الخروج من هناك: لكنّنا كنّا أوّل الصّحفيّين في المكان. بعدئذ، أذعن السّائق وبدأ بالرّجوع. في طريق العودة صادفنا صحفيًّا فلسطينيًّا كان على وشك الوصول. كان اسمه رامي ريان. بعد دقائق قليلة أُسقط صاروخان إضافيّان ومات رامي مُقطّعًا.

يحصل ذلك، وأستمرّ في محاولاتي لإيجاد تفسير أو خوارزميّة ما. أعتقد أحيانًا أنّ الأمر يتعلّق بالتّكنولوجيا. أتخيّل أنّه إذا كان "غوغل" يعرف ذلك القدر من الأمور عنّي، فلا شكّ أنّ الجيش الأسرائيليّ يعرفها أيضًا، وأريد أن أتخيّل أنّ هاتفي النّقّال الإسرائيليّ المشغَّل قد يكون نقطة حمراء يعلوها علم أرجنتينيّ على شاشة شخص متهكّم ما، تجعله يتوقّف للحظة قبل ضغط الزّر الذي يقرّر من سوف يعيش ومن لن يحيا. أودّ تصديق ذلك.

أصدّق أيضًا - أريد أن أصدّق - أنّ الحظّ يلعب دوره، وأنّك إذا آمنت بالحظّ فسوف تدرك أنّ حظّك مقرّر في هذه الحرب منذ وصولك. لا مكان للاختباء في غزّة، وقد يكون شعورك بأمان المكان الذي يأويك هو آخر شعور لديك. تفكّر أنّ الشّجاعة هي شيء من هذا القبيل - ألّا تكترث لأيّ شيء، أن تستسلم، بطريقة أو بأخرى. هذا أثر القنابل فيّ، إنّها تنهكني.

أكثر ما أخافني خلال هذه الأسابيع كانت مجرّد فكرة أن أحتاج أن أزور طبيب الأسنان: فقد زرته قبل الذّهاب إلى غزّة بالضّبط، وحاول خلال ساعة كاملة أن يُخرج سنًّا مزروعًا، دون أن يجد سبيلًا إلى ذلك. آلمني كثيرًا.

طبعًا، طبعًا، فإنّ ذلك في غاية الجرأة والشّجاعة. لكنّك إذا فكّرت في القنابل تفهم المعنى: فالقنبلة كالطّائرة، إذا سقطت تتحطّم وينتهي كلّ شيء. أمّا الذّهاب إلى طبيب الأسنان... عليك أن تقود سيّارتك إلى هناك، أن تتألّم ألمًا جسديًّا، أن تدفع مبلغًا من المال، أن تحدّد الموعد القادم. إنّه فعل مازوكيّ بامتياز وحتميّ، مع سابق الإصرار والتّرصّد.

****

ينام على الأريكة في شقّتنا شابّ يدعى أحمد، رغم أنّه يصرّ على أن ندعوه جوني. شابّ نحيل، كهربائيّ، يحمل هاتفًا لا يكفّ عن الرّنين من طراز آيفون 5. تعرّفت إليه قبل بضعة شهور خلال الفترة التي سبقت الحرب، أي في الفترة التي كان فيها دخولك إلى غزّة منوطًا براعٍ، أو "سبونسور"، وهو شخص يتعقّبك ويُخبر حماس بكلّ ما كنت تفعله. كان هذا الشّاب الرّاعي الذي رافقني آنذاك، وعندما فهم أنّ لا مال لديّ وأنّني لم أكن أبحث عن أخبار أو معارف، أصبح صديقي.

في الحرب، حصل جوني، أو أحمد، على فرصة غريبة، إذ أصبح في إمكانه أن يعمل أخيرًا. هنالك أشخاص كثيرون في الحالة ذاتها - أشخاص حصلوا على قدر معيّن من التّعليم، ولديهم سيّارة جيّدة، وأمامهم أبواب كثيرة موصدة، ويتمتّعون بإنجليزيّة لا بأس بها تفتح لهم بابًا واحدًا فقط: العمل كـ"فيكسر" تحت النّار، لأنّ هذا هو خيارهم الوحيد.

أمّا مارك، سائق السّيارة، فهو كاثوليكيّ من بيت لحم نُفي إلى غزّة بعد عدّة سنوات قضاها في سجن إسرائيليّ لتهم ما زال يجهلها. بالنّسبة له، غزّة عبارة عن منفى: فأن تصل في فلسطين إلى مكان لا عائلة لك فيه (ولا أقارب) هو نوع من العقاب، ضربٌ من الموت في الحياة. يتكلّم مارك الإنجليزيّة بطلاقة، ولديه شهادة جامعيّة في مجال التّمويل، ولديه أيضًا زوجة وابنان لا يستطيع رؤيتهم منذ أربعة أعوام. كلّ ما تبقّى له هو أن يقضي اليوم ذهابًا وإيابًا بين مواقع قُصفت ومواقع على وشك أن تُقصَف، وأن يصطحب صحفيّين يتقاضون رواتب هزيلة (وبعضهم لا يتقاضى رواتب إطلاقًا) ويدفعون له عشرين دولارًا مقابل السّاعة.

ثمّة تركيبة انفصاميّة في كلّ هذا، بين النّاس الذين لا مفرّ لديهم وبين النّاس الذين لديهم مفرّ - نحن الذين نفعل كلّ هذا بسبب قناعة ما؟ مبدأ؟ فضول؟ صحفيّون أحرار لم يطلب منهم أحد (ولن يطلب منهم أحد أبدًا) أن يكونوا هناك، ولن يدفع لهم أحد مقابل ذلك.

لماذا، إذن؟ يفعل أصدقائي في غزّة الأمر لأنّ لا خيار أمامهم. أمّا في حالتنا، فبودّي أن أومن أنّنا نفعل ذلك بسبب هاجس معيّن يجعلنا نضغط أزرار آلات التّصوير وأزرار لوحة مفاتيح الحاسوب دون توقّف، وبسبب رغبة ما في روايةِ ذاك الذي يجب ألّا يحصل.

آلة التّصوير، إذن، أو الكتابة، تبعثان شيئًا من الخلاص ربّما، أو ربّما تكون مكانًا جانبيًّا يسمح لنا بمعاينة الأمور ببرودة أنثروبولوجيّة، أو كرسيًّا صغيرًا يتيح لنا محاولة الوصول إلى الخزانة التي تخبّئ ذلك التّحدي: تفسير الإنسان للإنسان ذاته.

ليس كلّ هذا مجانيًّا. ليس مجانيًّا أبدًا.

وصلت صديقتي أليسيا إلى غزّة مع بدء الحرب، وبقيت هناك خمسة وعشرين يومًا لا نهائيًّا. اليوم، ورغم وجودها في فرنسا، ما زالت أليسيا تستحضر الذكريات والكوابيس. ما زالت مضطربة، وما زالت تنظر إلى السّماء باحثة عن طائرات دون طيّار، وما زالت تجفل كلّما سمعت ضجيج طائرة. لكنّها مصرّة على التّغلب على ذلك كي تستطيع العودة إلى غزّة للعمل.

قبل أيّام قليلة مات زميل آخر. مات سيمونِه خلال تصويره لعمل وحدة المتفجّرات في الشّرطة التي كانت تحاول تعطيل عمل قنبلة. لم أعرفه، لكنّ الأمر أثّر فيّ مثلما يؤثّر في جميع من كان هناك. إنّ الموت، أو وشاكة الموت، تجعلك أقرب، تجعلك صديقًا بكلّ بساطة.

في يوم موت سيمونِه، بدأ الكثيرون يرسلون الرّسائل إلى بعضهم البعض محاولين فهم هويّة الشّخص الذي مات، أين مات وماذا حصل تحديدًا. كتب إليّ أوسكار، وهو شابّ رأيته في غزّة لمدّة دقيقتين فقط كانتا كفيلتين بجعله صديقًا: "لقد رأيت وجه الشّاب في المشرح، وشعرت بغصّة في حلقي، لأنّه يبدو أنّ الموتى يحدّقون بك دائمًا. يبدو وكأنّهم لم يموتوا. شعور الشّخص حين يراه شخصًا آخر هو شعور لا يَفْهَمُ الموت. لا ندرك أنّنا هشّون، هشّون جدًّا. الذي حصل مؤسف ولعين ولم أحظ حتّى بالتّعرّف إليه".

إنّنا نترجم الألم ونفسّره دون أن نشعر به، لكنّنا نتذكّره عندما ننسى مدى هشاشتنا.

الحرب هي ألم يستحيل غريزةً. لها طعم نتن، معدنيّ، فاسد - طعمُ شيء يبقى عالقًا بعد أن تصكّ أسنانك مطوّلًا وأنت تلتقط الصّور بين الموتى. طعمُ قمامة، طعمٌ وسخٌ علق في السّن المزروع، وطعمٌ لا تستطيع التّخلّص منه، رغم أنّك تدرك أنّه يتعفّن شيئًا فشيئًا.